من هدى المنهج الصوفى

للاستاذ أحمد الشرباصى

الرائد العام لجمعيات الشبان المسلمين

« فى يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر ١٩٦١ بدأ الاحتفال بمولد السيد أحمد الرفاعى ، وقد نقلت الاذاعة إلى العالم الإسلامى الخطبة التى ألقاها الرائد العام لجمعيات الشبان المسلمين ظهر اليوم المذكور ، فى مسجد الرفاعى بالقاهرة ، بمناسبة هذا المولد » :

الحمد لله عز وجل ، بسط العبر وضرب الأمثال : « وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون » ؟. أشهد أن لا إله إلا الله ، جعل التذكير وظيفة الداعين ، وجعل التذكر صفة الخاشعين : « فذكر إن نفعت الذكرى ، سيذكر من يخشى » . وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، كان خير قدوة للناس فى سائر الأعمال والأحوال ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه ورجاله : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام .. لقد جرت عادة الناس فى كثير من بلاد الإسلام على إقامة الموالد فى مناسبات مختلفة : كمولد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وموالد الكرام من آل بيته ، وموالد الأولياء والصالحين ؛ ومع أن هذه الموالد لم تكن معروفة فى صدر الإسلام ، فإنة من الممكن إقامتها على سواء السبيل ، والانتفاع بها فى أكثر من وجه ، لأنها فى لبها الخالص لون من الوفاء للأخيار الابرار من السابقين ، وفيها فرص للاجتماع وتجديد الأخوة فى الله ، و « يد الله مع الجماعة » و « وإنما المؤمنون إخوة » ، وفيها استحضار لتاريخ هؤلاء الأخيار ، وتأمل فى مواقفهم للعظة والاعتبار ، ولا يكون لهذا التأمل فائدة كبيرة إذا لم يؤد إلى التشبه والاقتداء . ولا شك أن كل مستقيم فى العقيدة والدين من هؤلاء . قد اهتدى بهدى الرسول ، واقتدى بسنته ، والرسول هو مثلنا الأعلى فى القدوة والأسوة ، والله تعالى

يخبرنا بذلك ويأمرنا به حيث يقول : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » ، وحيث يقول : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » .

والآن يحتفل الناس بمولد الرفاعى فتكون إقامته فرصة للنظر فى تاريخه والاعتبار به ، إذ فيه كثير من العبر والعظات ، ولو أن كل منتسب إلى هذا الرجل تدبر سيرته ، وعمل بها ، لصار مثلا كريماً للمسلم ؛ فقد كان رجلا يأخذ التصوف على أنه مراقبة وإخلاص ، وخضوع لله فى السر والعلن ، وتقيد بالشرع والعبادة ، والتزام لما جاء به الصادق المصدوق محمد صلوات الله عليه وسلامه ، وذلك لعلمه أن الشريعة هى الأساس وهى العماد : يوقن الإنسان فى عقله وقلبه بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، فذلك هو الإيمان . ثم يظهر المؤمن حقيقة هذا الإيمان فى عمله وقوله ، بأن ينطق بالشهادتين ، ويصلى ، ويصوم ، ويزكى ، ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، فذلك هو الإسلام . ثم يحاول بكل ما استطاع أن يؤدى هذه الأعمال بحيوية وروح وإخلاص ومراقبة لله تعالى ، فذلك هو الإحسان ، وهو ما عرفه الرسول حين قال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . والهدف الأعلى للصوفى السليم المستقيم هو أن يتحلى بهذا الإحسان فى أحواله وأعماله ، وهذا الإحسان هو الذى يسمى بالحقيقة عند الصوفية ، ولا يتحقق هذا على وجهه إلا إذا اقترن الإسلام بالإيمان بالإحسان ، ولذلك قال الواعون من الصوفية : « من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق » ! .

* * *

ولقد كان الرفاعى رجلا ينادى فى كثير من المناسبات بأن الصوفى لا يكون صوفياً إلا إذا تقيد بالشريعة ، فهو يقول مثلا :

« كل حقيقة بلا شريعة فهى زندقة » . ويقول عن الشيخ عند الصوفية : « الشيخ ظاهره الشرع وباطنه الشرع » ويقول : الشيخ من يلزمك الكتاب والسنة ويبعدك عن المحدثة والبدعة » . ولذلك يقول أتباع الرفاعى فى وصفه : « إنه الجامع بين الشريعة والحقيقة » . ولو جمع كل متصوف بينهما كما ينبغى لكان من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك هم خير البرية .

وهم يقولون فى وصف الرفاعى إنه « أبو العلمين » ، والسبب فى ذلك أن نسبه من جهة إمه ينتهى إلى الحسن رضى الله عنه ، ونسبه من جهة أبيه ينتهى إلى الحسين رضى الله عنه ، فهو إذن سليل الحسن والحسين ، والحسن والحسين علمان خفاقان فى تاريخ الإسلام ، وللسلالة الطاهرة أثرها فى الذرية والأحفاد ، ونحن لا ننسى أن عاصم بن عمر بن الخطاب تزوج الفتاة التقية الطاهرة التى عصت أمر أمها فى خلط اللبن بالماء ليلا ، لأن الله يراها ، فكان لهما من هذا الزواج بنت صارت أما لخامس الراشدين وعادل الحاكمين عمر بن عبد العزيز الذى تبدت فيه طهارة الأصل والسلالة.. ولقد ضرب الحسن والحسين مثلين كريمين من أمثلة العمل الصالح الخالد ، أما أولهما وهو الحسن فقد تنازل لمعاوية عن منصب الحكم ، محاولا بذلك إطفاء نار الفتنة والشقاق بين المسلمين وأما ثانيهما وهو الحسين فقد ضحى بنفسه فى سبيل عقيدته ومبدئه ، حين اعتقد أن هذه التضحية هى السبيل إلى إظهار الفارق بين الحق والباطل ، وإلى تخليص الطيب من الخبيث ، فكان الحسين بذلك أبا الشهداء كما يقص علينا التاريخ . . .

* * *

ولقد تجلت فى تاريخ الرجل صفات وأعمال لو تحلى بها الشخص لا زداد رفعة وسموا عند الله وعند الناس . فقد كان مثلا رجلا اجتماعيا ، يحب الخدمة الاجتماعية لقومه وبنى جنسه ، ويسهم فيها بنصيب وافر ، فكان يألف خدمة اليتامى والأرامل والعجزة والمساكين والأطفال ، وإذا سمع بكاء من طفل تأثر وبكى ، وكان من رقته يعنى بأمر الحيوانات الضالة والمريضة ، وكان يفعل هذا فى تواضع وإخلاص ومن وضوح تواضعه أنه كان لا يرى فى نفسه ما تتميز بها على تلاميذه أو مريديه ، فهو يتبسط معهم ، ويعاملهم معاملة الصديق للصديق ، لا معاملة القائد المسيطر للجنود الخاضعين وكان يردد : « حشرت مع قارون وهامان وفرعون إن ظننت لنفسى تقدما على هؤلاء ، أو إن ظننت أننى ما استصغرت أحداً إلا وجدت نقصاً فى دينى ومعرفتى » ، ولعله فى هذه السبيل كان يهتدى بقول خالقه تبارك وتعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » .

وكذلك كان رجلا يعنى بإصلاح نفسه وتطهير قلبه ، فيشغله ذلك عن تتبع عيوب

غيره ، وعن التطلع إلى عورات سواه ، وكان يقول فى ذلك : « عميت لى عين أنظر بها إلى عيوب إخوانى » . وكان يقول أيضاً : « المتلفت لا يصل » ، ولعله يقصد بالمتلفت هنا الذى ينظر يمينا وشمالا ، فيشغله شأن هذا من الناس ، وعيب ذاك منهم ، ونقص ذلك فيهم ، فتتبعثر همته فى هذا التلفت الشاغل الملهى الموبق للوصول إلى ما يريد من غنم وتوفيق ، ولا ريب أو هذا القول منه يستضىء بنور قول الله عز وجل : « عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، ونور قول الرسول : « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس » . ولو شغل كل إنسان بعيبه فأصلحه لما وجد متسعا لتتبع العيب عند غيره ؟ ولو وفق الجميع فى إصلاح عيوبهم لما بقيت هناك عيوب . .

ولقد كان كما يحدثنا تاريخه رجلا يخاف ربه ويراقبه فى السر والعلن ، وفى الاجتماع والانفراد ، وقد روى عنه أن شيخه أعطاه وهو شاب سكينا ودجاجة ، وأمره بذبحها فى مكان لا يراه فيه أحد ، فمضى الشاب ثم عاد والدجاجة حية بيده ، فسأله شيخه لِمَ : لم تذبحها ؟ فأجاب : ياسيدى ، لقد شرطت على خلو المكان ، وأينما ذهبت وجدت الله حاضراً معى ناظراً إلى ... « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » . . . ولكن هذا الرجل الذى يخاف ربه كل هذا الخوف ، كان لا يهاب الجبارين ولا يخشى الحاكمين ، فهو يكتب إلى الخليفة العباسى المستنجد بالله يقول له : « إن أنت نفذت أحكام الله تعالى فى نفسك نفذت أحكام كتبك فى ملكه ، وإن عظمت أمر الله عظم الناس أعمالك وولاة الأمور من قبلك ... » .

يا أتباع محمد عليه الصلاة والصلام . . . إن الذكرى تنفع المؤمنين وإنما تنفعهم حين يحسنون استماعها ، ويحسنون الاعتبار بها ، ويحسنون الاتباع لها ، والسير على هديها ، وإن النفحات التى تتلألأ فى تاريخ أسلافنا ، من الصديقين والشهداء والصالحين ، الذين استضاءوا بكتاب ربهم ، واهتدوا بسنة نبيهم ، واعتصموا بالحق العدل والإيمان والعمل فى حياتهم ، كفيلة بأن تجعل من الضال مهتديا ، ومن الفاسق مرتدعا ، ومن البليد الإحساس رجلا مشبوب الوجدان نبيل العاطفة والشعور ، إذا تحقق الاعتبار والاستجابة والتزام الطريق السوى . وسبحان من لو شاء لهدانا جميعا إلى سواء السبيل .